جامعة كربلاء
كلية العلوم الإسلامية
دراسات اسلامية معاصرة / العدد 38 / كانون الأول 2023

المفردة القرآنية في مرويات الإمام الباقر (عليه السلام) _دراسة وصفية تحليلية_

The Qur'anic vocabulary in the narratives of Imamal Baqir _ Analytical descriptive study _

محمد علي صادق جواد
Muhammad Ali Sadiq Jawad
أ.د أمجد حميد الفاضل
Prof. Dr. Amjad Hamid Al-Fadhel
جامعة كربلاء/ كلية العلوم الإسلامية
University Of Karbala / College of Islamic Sciences

الكلمات المفتاحية: المفردة القرآنية، الروايات الشريفة، تفسير الباقر(ع) .

Key words: Quranic vocabulary,the Honorable narratives ,Al-Baqir's interpretation.

الملخص:

غالباً ما تتم دراسة المفردات القرآنية على وفق ما جاء في المعاجم اللغوية، حيث يتم معرفة دلالة المفردة من خلال الرجوع إلى المعاجم، أما في هذا المبحث فكانت المرويات الشريفة الصحيحة السند عن الإمام الباقر (عليه السلام) هي المرجعية العلمية التي تحدد لنا دلالة المفردة القرآنية لتتضح لنا كثير من الدلالات التي لا تحتوي عليها معاجم اللغة.

Abstract:

Quranic vocabulary is often studied according to what was stated in the linguistic dictionaries, where the meaning of the word is known by referring to the dictionaries. We have a lot of semantics that language dictionaries do not contain

المقدمة

الحمد لله الواحد الذي لا شريك له، والصمد الذي لا شبيه له، والأول الذي لا شيء قبله، والآخر الذي لا شيء بعده، وصلى الله على خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد:

لقد اهتم العلماء القدامى والمحدثون من أرباب التفاسير والمعجمات اللغوية بدراسة بُنية النص القرآني وأطالوا الوقوف والإمعان في مقاصدهِ الجليلة لمعرفة مراد الله عز وجل، فإن القرآن هو عهد الله إلى خلقهِ، ولو رجعنا إلى تراثنا المعرفي في جانب التفسير لوجدنا كثيراً من التفاسير التي تناولت دلالة المفردة القرآنية وحاولت أن تسبر أغوار دلالتها العميقة من خلال الرجوع إلى معجمات اللغة والبحث في دلالة الألفاظ وما عرف واشتهر في لغة العرب كون القرآن الكريم نزل بلسان العرب ولاقت آياته تفاعلاً كبيراً من قبلهم حتى من الذين أنكروا الوحي ووقفوا موقف العداوة والإنكار من النص القرآني ومن نبي الاسلام (صلى الله عليه وآله).

ولعل أشهر التفاسير قد اعتمدت في إيضاح مقاصد القرآن على اللغة العربية ودراسة ألفاظها وأساليبها البلاغية مع ذكر بعض الروايات والأحاديث والآثار النبوية المروية عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) والائمة من ولده (عليهم السلام) وكذلك ما روي عن الصحابة الذين رووا عن النبي (صلى الله عليه وآله).

وجاءت هذه الروايات لإيضاح بعض المعاني التي تقف عندها اللغة موقف العجز كأسباب النزول والمقاصد الغيبية والوجوه التأويلية التي لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم، وإذا دققنا النظر في كتب التفسير لوجدناها تنقسم على تفاسير لغوية وتفاسير مأثورة، ولا حاجة إلى ذكر التفاسير التي ارتكزت على التفسير بالرأي والاعتماد على المكاشفات الصوفية والمنامات والرؤى فإن هذا النوع من التفسير لا يتصل بشيء من الدليل والحجة وهكذا فهو ليس علماً نافعاً يمكن ان تُعرف به مقاصد النص القرآني، فما الدليل على ثبوت التفسير بالرأي والأخذ بهِ مع وجود كثير من الآيات والروايات الشريفة التي حرمت هذا النوع من التفسير وتوعدت اصحابهُ بالهلاك وانهم ضالون ومضلون، والحمد لله من قبل ومن بعد.

المفردة القرآنية:

في هذا المبحث الذي يسلط الضوء على المفردة القرآنية وطبيعتها وكيفية تفسيرها من قبل الإمام الباقر)عليه السلام) نحاول ان نتعرف على طبيعة ألفاظ القرآن الكريم قبل أن نأتي على ذكر الروايات الشريفة التي فسرت لنا مفردات القرآن وكشفت عن مقاصدها الإلهية، ومن المعلوم عند قدامى النقاد أن هناك من الألفاظ ما تكون سهلة لينة لا تكلف فيها ولا غرابة، وهناك من الألفاظ ما تكون غريبة أو لا تستسيغ الاذن سماعها، فقد نقل الرماني في مسألة التنافر في الألفاظ أو تنافر حروف الكلمة الواحدة عن الخليل بن أحمد الفراهيدي أنه قال: "فالسبب فيه البعد الشديد أو القرب الشديد، وذلك أنه إذا بَعُدَ البعد الشديد كان بمنزلة الطفر، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي القيد؛ لأنه بمنزلة رفع اللسان وردّه إلى مكانه، وكلاهما صعب على اللسان، والسهولة من ذلك في الاعتدال؛ ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال"[1].

وقد اهتم الخليل بنغمة الكلمة الناتجة عن انسجام الحروف في الكلمة الواحدة وكان يُنكر الكلمات الشنعاء التي لا تستحسنها الاذن، فقد أنكر كلمة (الهعخع) لما فيها من تنافر[2].

وقد أشار ابن رشيق القيرواني إلى سبب آخر غير الذي أشار إليه الخليل ألا وهو التقارب من خلال تكرار الحروف والألفاظ مع قرب مخارج تلك الحروف وذكر أنه يسبب الثقل في اللفظ واستدل ابن رشيق برأي ابن العميد الذي نقد قصيدة أبي تمام في قوله: "عاب ابن العميد حبيباً لقوله":

كريمـــا متـــى أمدحـــه أمدحـــه والـــورى

معـــي ومتـــى لمتـــه لمتـــه وحـــدي[3]

فنلاحظ أنه كرّر (أمدحه) مرتين من دون فاصلٍ بينهما، وكرّر كذلك (لمته) مرتين أيضاً من دون فاصل، وجمع بين حرفين يصعب الجمع بينهما وهما الحاء والهاء مما يسبب فقدان النص الأدبي للجمالية التعبيرية التي تؤثر في المتلقي.

بينما نلاحظ أن التكرار في القرآن الكريم جاء سلساً ليس فيه أي تكلف أو غرابة، فلا نجد في حروف المفردات القرآنية شيئاً مثل هذا الذي نقله ابن رشيق وانكره لما فيه من رتابة وثقل إذ يصعب النطق بهكذا نظم من الشعر.

ولقد عيب على أبي الطيب قوله:

إنَّ الكـــــريمَ بِـــــلا كـــــرامٍ مـــــنهم

مثـــــلُ القلـــــوب لا ســـــويداواتِها

فسويداواتها كلمة طويلة جداً[4].

عند النطق بهذهِ الكلمة نجد مشقة لا تخفى ليس بسبب طولها وحروفها وكثرتها فحسب وإنما لثقل حروفها، وقد نجد بعض المفردات القرآنية كثيرة الحروف ولكن لا نجد فيها هذا الثقل كقوله عز وجل: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[5]، فكلمة (فسيكفيكهم) هي جملة كاملة تتألف من فعل وفاعل ومفعولين ولكن يمكن النطق بها بكل سهولة ويُسر.

وفي هذا المبحث الذي يدرس فهم المفردة القرآنية بحسب مرويات الإمام الباقر (عليه السلام) نلاحظ فيما سيأتي من البحث اختلافاً كبيراً بين الفهم الذي قدمه الباقر (عليه السلام) وبين ما قدمه أصحاب التفاسير والاختلافات الكبيرة بينهم في فهم مقاصد القرآن، وقد وقع الاختيار على مجموعة من المرويات الشريفة التي صحَّ سندها وثبت متنها، وقد أتينا بها من أوثق كتب الحديث عند أتباع اهل البيت (عليهم السلام) تلك الكتب التي شهد بصحتها كبار الأعلام من مراجع الشيعة وعلى رأسهم السيد المحقق أبو القاسم الخوئي (رحمه الله)، وقد شهد بصحتها عدد كبير من الأعلام ممن سبقوه كالشيخ المفيد والشيخ الصدوق والسيد هاشم البحراني وغيرهم من كبار المحدّثين من القدماء والمحدثين، وهذا ليس مقام بحث أسناد الروايات؛ لأن هذا من اختصاص علم الرجال وإنما هو مقام دراسة النص على وفق مستوياته اللغوية وأبعاده الدلالية، ومن الأمثلة في فهم المفردات القرآنية، ما جاء في الروايات الشريفة.

الروايات الشريفة:

عَنْ أَبِي بَكْرٍ الْكَلْبِيِّ، عَنْ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ (عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ)، فِي قَوْلِهِ: اُدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً: «هُوَ وَلاَيَتُنَا»[6].

في هذه الرواية الشريفة فسر الإمام (عليه السلام) السلم بالولاية، فما هي اللازمة بين الولاية والسلم؟ قبل أن نبحث هذهِ المسألة لابدّ من الانتباه الى ان الخطاب القرآني في هذه الآية موجه إلى الذين آمنوا فقط، فالخطاب في هذا المقام لا يشمل الذين كفروا ولا المشركين ولا أهل الكتاب من أصحاب الملتين اليهودية والنصرانية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[7].

والغريب أن كثيراً من المفسرين فسروا (السلم) فقالوا أنه الإسلام، ومن هؤلاء ابن كثير فيقول: "قال العوفي: عن ابن عباس، ومجاهد، والضحَّاك، وعكرمة، وقتادة، والسُّدي، وابن زيد في قوله: (ادخلوا في السلم) يعني: الإسلام"[8].

وفي الحقيقة أن هذا التفسير غريب جداً واللازمة اللغوية تشهد على ركاكتهِ وضعفه من خلال سياق الخطاب القرآني؛ لأن السياق موجه نحو الذين آمنوا، فكيف يأمرهم الله بالدخول في الإسلام ومع ذلك يشهد لهم بأنهم مؤمنون؟!! لأنه يستحيل أن يكون الشخص مؤمناً وهو ليس بمسلم هذا أولاً، وثانياً: ان الايمان أعلى رتبةً من الاسلام بدليل قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[9].

فالقرآن ينكر على الأعراب قولهم وادعاءهم أنهم من المؤمنين، وصحح القرآن قولهم وصوّبه فقال لهم: (ولكن قولوا أسلمنا)؛ لأن الاسلام يشمل كل شخص شهد الشهادتين (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله)، ولكن الإيمان يوجب صحة الاعتقاد واليقين وانتفاء الشك وانعدام النفاق بدليل قوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ﴾[10].

وعندما نقرأ هذا اللون من التفسير تطرأ في أذهاننا اسئلة كثيرة وإشكالات أبرزها:

كيف يأمر الله الذين آمنوا بالدخول في الإسلام وهو يشهد لهم بأنهم في مرتبة الإيمان وهي أعلى من الإسلام؟!!

وكيف أجمع كل أولئك المفسرين كابن عباس ومجاهد وغيرهما ووافقهم ابن كثير على هذا الرأي؟!!

ثم هل الذين آمنوا من الكفار حتى يأمرهم الله بالدخول في الإسلام ؟!!

كل هذه الاسئلة لا نجد لها جواباً شافياً كافياً مما يدل على ضعف هذا التوجيه من قبل المفسرين لمعنى كلمة (السلم).

تفسير الباقر(عليه السلام):

أما التفسير الذي جاءنا على لسان الإمام الباقر (عليه السلام) فهو تفسير منسجم تمام الإنسجام مع النص القرآني من خلال هذهِ الأدلة:

أولاً: إن ولاية أهل البيت (عليهم السلام) عصمة من الضلال، وتوحيد للطاعة إذ تجعل الطاعة موجهة إلى الإمام الذي نصّ على ولايته الله عز وجل ورسوله (صلى الله عليه وآله) وعندما تتوجه الولاية إلى شخص واحد تتجنب الأمة الخلافات والحروب الشعواء وسفك الدماء، فالمؤمنون كلهم يطيعون إماماً واحداً ولا يختلفون في طاعته، ولا يشركون معه طاعة شخص آخر، فتعدد الولاءات يسبب النزاعات والحروب وهذا ما وقعت به الأمة الاسلامية بعد رحيل رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن الدنيا، وقد أمر النبي (صلى الله عليه وآله) أمته ان تتمسك بما يعصمها من الضلال فقال: "إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض" [11].

وكذلك فقد ورد التحذير على لسان النبي (ص) من الاختلاف والتنازع من بعده فقال: "لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض"[12].

لقد حاول الإسلام بتشريعاته الدقيقة السيطرة على مسألة اجتماعية في غاية الأهمية ألا وهي (السِلم)، فلا تستطيع الأمم ان تتقدم وتزدهر في كافة مجالات الحياة من دون السلم الاجتماعي.

ثانياً: إن الاسلام بنصوصه المقدسة (القرآن وحديث العترة) يصدح مدوياً أن الحقيقة واحدة ولا تتعدد، وأن السبيل الى الله واحدة لا تعدد فيها، ومن الأدلة على هذا المعنى:

قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[13].

وأمّا ما جاء من الشواهد على هذا المعنى من حديث العترة صلوات الله عليهم فهو كثير جداً، ومنه قول الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء (عليها السلام) في خطبتها في جموع المهاجرين والانصار: "فجعل الله الايمان تطهيراً لكم من الشرك ...، وطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً من الفرقة"[14].

فكانت الولاية التي عبّر عنها القرآن بالسلم هي السبيل التي تأخذ بأيدي الأمة الاسلامية الى النجاة في الآخرة وإلى السلم والاعتصام بحبل الله جميعاً في الدنيا، ولهذا عبرت عنها سيدة النساء بأنها أمان من الفرقة.

ثالثاً: إن هذا النص للرواية الشريفة في تفسير معنى السلم يطابق الواقع الذي مرّت به الأمة الاسلامية بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله) إذ بدأت الحروب الداخلية تلتهم الآلاف من أبناء الامة ابتداءً من حروب الردّة ومروراً بالجمل وصفين والنهروان إلى يومنا هذا والحروب الطائفية لا تزال تفتك بالأمة بسبب الاختلاف.

ننتقل إلى مفردة أخرى مما روي عن إمامنا الباقر (عليه السلام):

"عن سعد الاسكاف، عن ابي جعفر (عليه السلام) قال: "إنَّ الله يقول في كتابه: (وهو ألدُ الخِصام) قال: قلتُ: ما ألَد؟ قال: شديد الخصومة"[15].

نرى أن الإمام الباقر (عليه السلام) في هذهِ المفردة لم يتعدَ حدود التفسير المعجمي لمفردات القرآن، وقد ذكرت كتب المعاجم معنى اللدود وفسرته بالعداوة الشديدة.

جاء في لسان العرب في مادة (لَدَدَ): "الخصومة الشديدة مع الميل عن الحق"[16].

وفي معنى مفردة (القليل) الواردة في قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ... بالظالِمين﴾[17].

عن هارون بن خارجة عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله عز وجل: (فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم) قال: كان القليل ستين ألفا[18].

في هذا الحديث يفسر الإمام (عليه السلام) القليل بهذا العدد الكبير (ستون ألفاً) مع أنه عدد ليس بالقليل اطلاقاً وذلك أن هذا العدد لو نظرنا إليه من دون قياس بالنسبة إلى غيره، ولكن لو تم قياسه بالعدد الكامل لجيوش بني إسرائيل التي خرجت بقيادة طالوت لكان قليلاً كما قال الإمام (عليه السلام).

ففي هذهِ الرواية نظر الإمام الى نسبية العدد ولم ينظر إلى الكم، والقرآن عبر عن هذا العدد بالقليل؛ لأنه نظر الى النسبة أيضاً، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على مدى انعدام الافتراق بين الكتاب والعترة الذي أشار إليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حديث الثقلين.

وروي عنه (عليه السلام) في معنى (الفتنة) في قوله عز وجل: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[19].

أَبُو عَلِيٍّ الطَّبْرِسِيُّ: وَقٰاتِلُوهُمْ حَتّٰى لاٰ تَكُونَ فِتْنَةٌ أَيْ شِرْكٌ. قَالَ: وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ (عليه السلام)[20].

في هذا النص القرآني يعبر القرآن عن الشرك بأنه فتنة كما فسره أبو جعفر (عليه السلام) فما هي اللازمة المعرفية بين الشرك والفتنة؟

في البداية لابد لنا أن نقف بإيجاز على معنى الفتنة ثم نرى الرابطة المعنوية بين المصطلحين.

جاء في تاج العروس: "وقال الأزهري وغيره: جِماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان، وأصلها مأخوذٌ من الفتن، وهو إذابة الذهب والفضة بالنار لتمييز الرديء من الجيد"[21].

من هنا يتبين أن الجهاد الذي عبّر عنه القرآن (وقاتلوهم) كان أمراً من الله يدفع به عن الأمة (عواقب الرِدَّة)، فالجهاد يقوي شوكة المسلمين ضد أعدائهم المشركين، وحصيلة كل هذا هو عدم الارتداد عن الدين، فالغلبة للمنتصر في الحرب، ولو ان المشركين من قريش ظفروا بالمسلمين وتمكنوا منهم لردّوهم عن دينهم، ولا يمكن للإسلام أن يقوم بغير الجهاد ليمنع وقوع الارتداد عن الدين الذي عبّر عنه الباقر (عليه السلام) بالشرك.

وأما في تفسير قوله عز وجل: ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾[22]، فنجدُ عدة معانٍ يبينها لنا الإمام الباقر (صلوات الله عليه) تتجاوز المعاني اللغوية في أبعادها المعجمية ودلالتها السياقية، فلو أخذنا مفردة (الصمد) لندرسها في بُعدها المعجمي لما توصلنا إلى النتائج العظيمة والكنوز المعرفية التي ستمر علينا من خلال الرواية الشريفة.

قَالَ الْبَاقِرُ (عليه السلام): «حَدَّثَنِي أَبِي زَيْنُ الْعَابِدِينَ، عَنْ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ(عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ)، أَنَّهُ قَالَ: الصَّمَدُ: اَلَّذِي لاَ جَوْفَ لَهُ، وَالصَّمَدُ: اَلَّذِي قَدِ انْتَهَى سُؤْدَدُهُ، وَالصَّمَدُ: اَلَّذِي لاَ يَأْكُلُ وَلاَ يَشْرَبُ، وَالصَّمَدُ: اَلَّذِي لاَ يَنَامُ، وَالصَّمَدُ: اَلدَّائِمُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلاَ يَزَالُ»[23].

قبل أن نأتي لمقاربة المعاني الواردة في النص مقاربةً معرفيةً لابدّ لنا ان نقف على الدلالة المعجمية للفظة (الصمد) حتى يتبين لنا أن المعنى المعجمي لا يأخذ بأيدينا إلى مقاصد النص القرآني لو دُرِسَ النص بمعزلٍ عن الرواية الشريفة.

جاء في لسان العرب: "صَمَدَ إليه قصده ... وبيتٌ مصمد أي مقصود وأنشد الجوهري:

علوتـــــه بحســـــامٍ ثـــــم قلـــــتُ لـــــه

خـذها حُـذيف فأنـتَ السـيد الصـمد"[24]

فالصمد في اللغة هو المقصود، وقد وردت لفظة (المصمّد) وهي إحدى مشتقات (الصمد) في معلقة طرفة بن العبد، فيقول:

وإن يلتقـــــي الحـــــي الجميـــــع تلاقنـــــي

إلـــى ذروة البيـــت الشـــريف المصـــمدِ[25]

نلاحظ أن دلالة هذه المفردة تأتي بمعنى القصد، لكنها جاءت على وفق بيان الإمام الباقر (عليه السلام) تحمل دلالات تتجاوز فيها الدلالة المعجمية وتتسع فيها الآفاق المعرفية.

فالمعنى الأول للصمد: هو الذي لا جوفَ له، ثم تتسامى المعاني تدريجياً فيكون المعنى: هو الذي لا يأكل ولا يشرب، ثم يتسامى ليصبح: هو الذي لا ينام.

لو لاحظنا الدقة والتراتبية في تدرج صفات الحق جل جلاله على لسان الإمام (عليه السلام) لوجدنا أنه نفى عنه صفة التجويف ليخرجه عن صفة الأجسام المادية التي تقتضي وجود جوف لها، ثم بعد ذلك النفي لصفة التجسيم اقتضى أنه سبحانه غني عن الطعام والشراب؛ لأنه تعالى أن يكون جسماً يفتقر إلى ما يمدّه من القوت ليجيء بهِ، وبعد ذلك تنتفي صفة النوم لأستغنائهِ عنها ايضاً، ثم يوصف بأنه الدائم الذي لا يجري عليه الزمان ولا تغيَّره الاحوال وأنه لكائن من دون بداية ليكونتهِ، وأنه الباقي من دون نهاية لبقائه.

ومما جاء من المفردات التي فسرها الإمام(عليه السلام) مفردة (البينة) في قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾[26].

عن ابي جعفر (عليه السلام) قال: "البيّنة محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله)"[27].

لقد وصف القرآن الكريم الرسول (صلى الله عليه وآله) بالبيّنة وكأن النبي (صلى الله عليه وآله) ظاهرة كونية واضحة أو كأنه من الأمور التي لا يمكن ان يُختلف عليها، فلماذا اختلف الناس عليه إلى يومنا هذا فمنهم من صدّقه ومنهم من كذّبه؟!

قبل الإجابة على هذا السؤال نريد أن نتأمل قليلاً في السياق اللغوي الذي وردت فيه هذهِ المفردة اللافتة للأنظار حيث ان السياق جاء يخاطب اهل الكتاب ويصف أحوالهم، وأهل الكتاب هم اتباع الملتين (اليهودية والنصرانية) حيث جعل القرآن النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بينةً لهم، والبينة من البيان والوضوح فهي لا تخفى على أحد منهم بمقتضى بيانها وإلا فلن تكون بينةً، فهل كان أهل الكتاب يعرفون شخصية هذا النبي؟ أو هل عندهم من القرائن والأدلة المعرفية ما يعرفهم بهذهِ الشخصية؟

لقد حدثنا القرآن الكريم عن صور متفرقة من الحقائق الثابتة في الكتب السماوية القديمة وأبرزها (التوراة والإنجيل) فأما ما جاء من وصف رسول الله (صلى الله عليه وآله) في التوراة بلسان القرآن الكريم فقد حدثنا في سورة الاعراف عن صفات ذلك النبي الذي وصفه الله لموسى(عليه السلام) ووصف شريعته بتفصيل وبيان لا يقبل الشك أو التردد في أمره.

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[28].

لقد كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى وخاصة العلماء منهم يعرفون صفات رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويعرفون رسالته التي سوف يُبعث بها؛ لأن التوراة فصّل القول في هذا اللسان وكذلك الإنجيل، فقد قال الله عز وجل على لسان عيسى (عليه السلام): ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[29].

لو عدنا إلى المواقف التاريخية لعدد من المنصفين من علماء أهل الكتاب لوجدناهم يقرون بهذهِ الحقيقة التي حدثتهم عنها كتبهم، ومن هؤلاء المنصفين عبد الله بن سلام وكان من رؤساء اليهود في المدينة المنورة ووجهائهم، فهو يحدثنا عن أول موقفٍ رأى فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله) وذلك عند قدومهِ (صلى الله عليه وآله) الى المدينة في الهجرة الشريفة، يقول: "أول ما قدم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المدينة انجفلَ الناس إليه، فكنت فيمن جاءه، فلما تأملتُ وجهه واستثبتّهُ علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب"[30].

إن في هذا النص مفردة في غاية الأهمية وهي قوله (استثبتّه) أي انه تثبت من صدق الشيء (صلى الله عليه وآله)، والسؤال هو: كيف لرجل يهودي أن يؤمن بنبي ولم يرَ منه أية معجزة تثبت نبوته وصدق رسالتهِ؛ لكنه آمن بهِ بمجرد أنه رآه؟!

في الحقيقة أن المسألة ليست بهذهِ البساطة إذ أن ابن سلّام كان عالماً كبيراً بعلوم التوراة والأسفار التي أوحاها الله تعالى إلى أنبياء بني اسرائيل وبالمحصلة فإنه كان عالماً بأحوال النبي الذي بشرت به التوراة وبشرت به الأسفار من بعد التوراة كسفر إشعيا وإرميا وحزقيال ودانيال، ولذلك فإنه تثبت من صدق النبي من خلال معرفته السابقة التي استمدها من الكتب السماوية المباركة.

ومن الجدير بالذكر أن التوراة والأسفار اليهودية في كتاب العهد القديم إلى الآن توجد فيها هذهِ البشارات بالنبي (صلى الله عليه وآله) ولسنا في مقام إيرادها فهذا يندرج ضمن تخصص علم مقارنة الأديان، وإنما نكتفي ببيان معنى مفردة (البينة) التي وردت في السياق القرآني الذي توجه فيه الخطاب الى اهل الكتاب مع ذكر اللازمة المعرفية التي تجعلنا نقترب من حقيقة (البينة) ومدى انطباقها على شخص رسول الله (صلى الله عليه وآله).

الخاتمة:

إن مفردات القرآن الكريم التي انمازت بسلاسة مخارج حروفها وفصاحتها وبعدها عن التكلف والصنعة . لا بد أن تدرس في السياق الذي وردت فيه، ولقد اعتمد كثير من الباحثين على دراسة مضامين تلك المفردات وتعدد الدلالة فيها على المعاجم اللغوية حالها حال المفردات التي وردت في أشعار العرب واحتوت عليها دواوين

الشعراء. فإن المرجع العلمي لمعرفة دلالتها هو المعجم اللغوي، وفي هذا البحث حاولنا دراسة المفردات القرآنية بحسب ما وصل إلينا من المرويات الشريفة الثابتة سنداً ومتناً عن إمامنا الباقر (عليه السلام) حيث اتضح لنا أن المرويات الشريفة قد وردت فيها كثير من الدلالات التي تضمنتها المفردات القرآنية مما لم يرد ولم يُذكر في معاجم اللغة وهذا مما يدل على عمق المرويات الشريفة للأئمة الأطهار (عليهم السلام) فهم الراسخون في العلم وهم العالمون بمقاصد التنزيل والتأويل التي استودعها الله في صدورهم.

الهوامش:

1 – النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي (ت 384هـ)، ت: محمد خلق الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 1968م: 96.

2 – سرّ الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي، مكتبة صبيح للمطبوعات، القاهرة، ط1، 1969م: 48.

3 – العمدة في صناعة الشعر ونقده، لابن رشيق القيرواني، مطبعة هندية، القاهرة، ط1، 1925م: 2: 204.

4 – سرّ الفصاحة: 78.

5 – سورة البقرة، الآية: 137.

6 – تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي، المكتبة الاسلامية، طهران، ط11، 1380هـ: 1: 6.

7 – سورة البقرة، الآية: 208.

8 – تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ت774هـ، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2000: 267.

9 – سورة الحجرات، الآية: 14.

10 – سورة الحجرات، الآية: 15.

11 – المسند، الإمام أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1421هـ–2001م: 17: 170، السنن الكبرى أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ت303، ت: عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط11، 1421هـ–2001م: 7: 310. سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي ت279هـ، ت: احمد محمد شاكر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط2، 1395هـ–1975م: 5: 662. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، ت: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ: 3: 118.

12 – صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ت: جماعة العلماء، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، القاهرة، ط1، 1311هـ: 9: 50.

13– سورة يوسف، الآية: 108.

14 – المجلسي، بحار الانوار: 29: 223.

15 – تفسير العياشي: 1: 101.

16 – لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الانصاري ت711هـ، ت: عبد الله علي الكبير، دار المعارف، القاهرة، ط11: مادة (لدد).

17 – سورة البقرة، الآية: 246.

18 – معاني الأخبار، ابو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي، ت: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الاسلامي، قم، ط11، 1361هـ: 151.

19 – سورة الانفال، الآية: 39.

20 – مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسي، ت: السيد هاشم الرسولي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1406هـ: 2: 513.

21 – تاج العروس من جواهر القاموس، محب الدين أبو الفضل محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، ت: عبد الكريم العزاوي، التراث العربي، طبعة وزارة الإعلام في الكويت، ط1، 1976م: مادة (فتن).

22 – سورة الإخلاص: 2.

23 – التوحيد، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي ت381هـ، ت: هاشم الطهراني، طبعة جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة، ط1: 92.

24 – لسان العرب: مادة (صَمَدَ).

25 – شرح المعلقات العشر، القاضي أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط1، 1983م: 108.

26 – سورة البينة، الآية: 1.

27 – تفسير القمي، ابو الحسن علي بن ابراهيم القمي، ت: السيد طيب الموسوي الجزائري، مؤسسة دائر الكتاب، قم، ط3، 1404هـ: 2: 432. البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم البحراني ت1107هـ، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1429هـ–2008م: 10: 211.

28 – سورة الاعراف، الآية: 157.

29 – سورة الصف، الآية: 6.

30 – شرح الإمام بأحاديث الاحكام، تقي الدين محمد بن علي القشيري ت702هـ، ت: محمد العبد الله، دار النوادر، دمشق، ط2، 1430هـ–2009م: 4: 448.

المصادر والمراجع

_ القرآن الكريم.

1– بحار الانوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر المجلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط

2– البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم البحراني ت1107هـ، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1429هـ–2008م.

3– تاج العروس من جواهر القاموس، محب الدين أبو الفضل محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، ت: عبد الكريم العزاوي، التراث العربي، طبعة وزارة الإعلام في الكويت، ط1، 1976م: مادة (فتن).

4– تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي، المكتبة الاسلامية، طهران، ط11، 1380هـ:

5– تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ت774هـ، دار ابن حزم، بيروت، ط1

6– تفسير القمي، ابو الحسن علي بن ابراهيم القمي، ت: السيد طيب الموسوي الجزائري، مؤسسة دائر الكتاب، قم، ط3، 1404هـ.

7- التوحيد، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي ت381هـ، ت: هاشم الطهراني، طبعة جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة، ط1.
8- سرّ الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي، مكتبة صبيح للمطبوعات، القاهرة، ط1، 1969م.
9- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي ت279هـ، ت: احمد محمد شاكر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط2، 1395هـ-1975م
10- السنن الكبرى أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ت303، ت: عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط11، 1421هـ-2001م
11- شرح الإمام بأحاديث الاحكام، تقي الدين محمد بن علي القشيري ت702هـ، ت: محمد العبد الله، دار النوادر، دمشق، ط2، 1430هـ-2009م.
12- شرح المعلقات العشر، القاضي أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط1، 1983م.
13- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ت: جماعة العلماء، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، القاهرة، ط1، 1311هـ.
14- العمدة في صناعة الشعر ونقده، لابن رشيق القيرواني، مطبعة هندية، القاهرة، ط1، 1925م.
15- لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الانصاري ت711هـ، ت: عبد الله علي الكبير، دار المعارف، القاهرة، ط11: مادة (لدد).
16- مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسي، ت: السيد هاشم الرسولي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1406هـ.
17- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، ت: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ.
18- المسند، الإمام أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1421هـ-2001م.
19- معاني الأخبار، ابو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي، ت: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الاسلامي، قم، ط11، 1361هـ.
20- النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي (ت 384هـ)، ت: محمد خلق الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 1968م.